ملامح الفكر التّعليمي عند ابن خلدون

بن علية عبد السلام
جامعة يحي فارس - المدية / الجزائر
aes26aes@gmail.com

تاريخ التسلم: 2019/12/02 تاريخ القبول: 2020/06/22

الملخص:

يتناول هذا المقال الحديث عن العبقرية التي تناول بها ابن خلدون مسألة تعليم العلوم بصفة عامة و تعليم اللغة و تعلمها بصفة خاصة، حيث ثبُتت بعد العديد من الدراسات أنها مبادئ أساسية من شأنها أن تعطي تفاسير هامة و حقائق مؤكدة للكثير من الظواهر المراد تعلمها لدى الفرد من قبل المجتمع الذي يتواجد فيه، سواء من حيث المحتوى و المضمون أو من حيث الطرائق المتبعة في العملية التعليمية، و منه يمكن اعتبارها مقاربات مبنية على معطيات علمية تراعي الجوانب النفسية و الفيزيولوجية و الاجتماعية للفرد المتعلم بالرغم من أنها تبدو مجرد مجرد إشارات، لكنها نابعة، بكل تأكيد، عن تجربة اجتماعية وثقافية عاشها ابن خلدون لسنوات طويلة يمكن استثمارها اليوم في الحقل التعليمي واعتمادها في المجال التطبيقي لعدد من المواد الدراسية.

الكلمات المفاتيح: ابن خلدون - التعليم - اللغة - المقاربة - الملكة.

Ibn Khaldun Features of educational thought

Abstract:

This article deals with the "genius"notion used by Ibn Khaldun to address the issues of science education in general and language teaching and learning in particular. Many studies validated these issues as the basic principles that would convey significant explanations and hard facts sought by the individual due to the society in which he exists, whether it is in terms of the content and substance or in terms of the methods used in the educational process; Therefore, it can be considered to be based on scientific data that take into account the psychological, physiological and social aspects of the educated individual despite the fact that it – appears – as mere features and indications, - and it certainly – stems from the social and cultural experience of Ibn Khaldun over many years, and which can be invested in the field of education nowadays, through using it in the application of a number of different subjects.

Keywords: Ibn Khaldun - Language - approach - teaching - progress.

مقدمة:

يشكل تعليم اللغات و تعلمها في كل زمان و مكان قضية ذات أهمية بالغة في حياة الشعوب و الأمم، ولذلك فإن تاريخ المجتمعات يرصد الكثير من الاهتمام بهذه المسألة مما يؤكد في كل مرة صعوبة العملية نظرا لتداخل الكثير من العلوم و التخصصات و تشابكها في معرفة هذه الظاهرة وتفسيرها.

إن تعليم اللغات و تعلمها قضية ضاربة في جذور الماضي و ليست وليدة اليوم لأنها تهتم بشيء ذي أهمية كبيرة في الوجود ألا و هو اللغة باعتبارها الأداة التي توحد بين المجتمعات من خلال التواصل لأجل تحقيق التفاهم فيما بينها وضمان السيرورة الاجتماعية، وذلك حينما يتمكن الأفراد من ممارسة مختلف أشكال التعايش فيما بينهم كإقامة الشعائر الدينية والأعراف والعادات و التقاليد و الفنون، كما أن اللغة أحد العوامل الأساسية التي توفر الطمأنينة وتبسط الهدوء و السكينة و تبعث على الارتياح في الوسط الاجتماعي،"فاللغة ليست مجرد نظام متكامل يتضمن الأنظمة الأربعة المعروفة بل إنها أداة للتعامل و التواصل الفعلي بين البشر على اختلاف أنواعهم و أعمارهم و شخصياتهم و أوضاعهم الاجتماعية، ذكورا و إناثا، كبارا و صغارا، ملوكا و صعاليك "(خرما،وحجاج، 1988، ص 10).

إن تعدد أفراد المجتمع الواحد سنّا و جنسا و مرتبة فضلا عن تعدد حاجاتهم المادية و المعنوية قد خلق للغة وظائف عديدة، كما أن الحضارة الإنسانية بمختلف ألوانها وأشكالها شريك أساسي في تطوير الفرد و حصيلته اللغوية و ذلك بفعل ما ينتج بينهما من تفاعل حينما يتأثر الأول بالثاني، فاللغة هي العصب النابض لكل نشاط اجتماعي و هي أيضا المصدر الحي والوثيق لمعرفة القيم و المثل و المفاهيم الحضارية التي يمكنها أن تميز مجتمعا معينا عن غيره من المجتمعات، و بهذا تصبح اللغة فهرسا لحضارة كل مجتمع تتأثر بها و تؤثر فيها بحيث يصبح الفصل بينهما متعذرا.

ومن هنا يمكن اعتبار اللغة جزءا من كيان المجتمع و قيمه الحضارية. و نظرا للأهمية البالغة التي تحظى بها اللغة في حياة الأفراد و المجتمعات فإن تعليمها وتعلمها قد نال اهتمام عدد من المفكرين منذ القدم حيث اختلفت التفسيرات و تعددت وجهات النظر لهذه الظاهرة و زحفت إلى الوقت الحاضر فأصبحت من المواضيع الحساسة التي زادت من حدة الاهتمام لدى المختصين، و توسعت دائرة الدراسات حولها لتشمل تخصصات جديدة على غرار علم النفس بمختلف فروعه و علم الاجتماع و علم التربية واللسانيات و السيميولوجيا و غيرها. و من هذا المنطلق ارتأينا أن نعود إلى الوراء و نلقي نظرة على هذا الموضوع لدى أحد رواد علم الاجتماع البارزين ألا و هو أبو زيد عبد الرحمان ابن خلدون، و يطرح هذا المقال إشكالية تعليم اللغة و تعلمها من خلال مجموعة من التساؤلات يمكن حصرها فيما يلي:

. ما مكانة اللغة من التعلم عند ابن خلدون ؟

. ما أهم العوامل المساعدة على تعليم اللغات و تعلمها من خلال ما أورده في مؤلَفه: **المقدمة** ؟

. ما مفهوم اللغة أصلا عند ابن خلدون ؟ وما الأساس الذي اعتمده في تحديد مفهومها ؟

. هل يمكن الاستفادة من أطروحات ابن خلدون التعليمية في هذا العصر؟ أم أنها مجرد أفكار تجاوزها الزمن، لاسيما في ظل تطور البحوث و النظريات و الوسائل التكنولوجية المساعدة في العملية التعليمية ؟

1- مفهوم اللغة عند ابن خلدون:

إن المتصفح للمقدمة يدرك جيدا الثقة الكبيرة التي كان يتكلم بها ابن خلدون في تحديده لعدد من المفاهيم، و ذلك حينما نجده يبدأ في كثير من الأحيان بعبارة: "**اعلم** "، فهي إشارة واضحة إلى كفاءته التي تحصل عليها و امتلكها من عصارة التجارب التي مرت به في الحياة من خلال ملاحظاته المتواصلة لطبائع البشر و سلوكهم، لاسيما تلك الظواهر التي تشكل عناصر أساسية في الممارسات اليومية لديهم وعلى رأسها اللغة التي تُظهر بشكل مباشر ذهنية الأفراد و ملامح شخصياتهم، و أول ما يبتدئ به ابن خلدون من العبارات في تحديده لمفهوم اللغة العبارة الآتية: "اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده "(ابن خلدون، 2002، ص 565).

المتأمل لعناصر هذه الجملة يدرك أن ابن خلدون يركز بادئ ذي بدء على كلمة "**المتعارف**"، حيث تعني عامة الناس و ليس أهل الاختصاص من العلماء و المفكرين فحسب، فاللغة في مفهومها العام عبارة المتكلم عن مقصوده، و لفظة "**عبارة**"في هذا السياق بمعنى التعبير **Locution**""الذي يعني قدرة المرء على إخراج ما يجول في ذهنه و خاطره من مشاعر و أفكار وعواطف وآراء بواسطة اللسان مصاغا بأسلوب سليم في اللفظ و المعنى "، و هو ظاهرة تبرز الجانب الاجتماعي و التعاملي بواسطة اللغة، كما أنه دليل على تطور العلاقات و تلبية حاجات الإنسان "(عشير، 2007، ص 90)، و هذا ما يشير إليه في لفظة "**مقصوده**"، و يؤكد ابن خلدون بأن هذا التعبير هو نشاط يمارسه الفرد بلسانه كعضو مهمّ وذلك من خلال العبارة الثانية "فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام "(ابن خلدون، 2002، ص 574)، حيث يهدف المتكلم **Locuteur**""من هذا السلوك إلى تقديم الفائدة لمستمعه، و يتلوها بالعبارة الآتية "... فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها و هو اللسان "(ابن خلدون، 2002، ص 556)، حيث يظهر مصطلح جديد يلازم لفظة اللغة دوما وهو "**الملكة**"التي تقابلها في اللغة الأجنبية لفظة "**Compétence**"، و هناك من يسميها من علماء اللسان بـ "**الكفاية**"، حيث يردد ابن خلدون هذا المصطلح في مواقع أخرى: "اعلم أن اللغات كلها ملكات إذ هي ملكات في اللسان../..اللغة ملكة في اللسان"(ابن خلدون، 2002، ص 556)، و يعني بالملكة الصفة الراسخة أي القدرة التي تنشأ لدى الفرد و ترسخ في ذهنه و تصبح مهارة يمارسها بكل سهولة و يسر و دون عناء، لأن الملكة في عرف الأخصائيين قابلة للتطور و الارتقاء جراء الممارسة المستمرة شريطة توفر الفرد على عامل التهيؤ والاستعداد لذلك، و يؤكد ابن خلدون هذا المعنى بما يلي: "..وهذه الملكة تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع و التفطن لخواصه "(ابن خلدون، 2002، ص581).

الناظر في موضوع اللغة عند ابن خلدون، يجده قد استعان بالمنهج الوصفي في تحديده لمفهوم اللغة، كما أن مفهومها ظهر أيضا – بحسبه – من خلال الوظيفة التي تؤديها في المجتمع ألا و هي التواصل والتفاهم، و منه يمكن القول إنه بهذه البساطة في القول – على الأقل – قد أسهم بإشارات واضحة

في تعريفه للظاهرة اللغوية التي يمارسها المتخاطبون في حياتهم اليومية، كما أنها جديرة بالاهتمام والدراسة - كظاهرة صوتية - تبقى تحتل الصدارة في التعبير عما يختلج في سرائر البشر وقرائحهم وأن لا بديل عنها قوةً و بلاغةً في تأدية الأغراض الموكلة إليها، و هذا ما كان يقصده ابن جني قبله حينما قال: "حدّ اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم "(ابن جني، ج 1، 2007، ص 76).

2- مكانة اللغة في التعلم:

من بين العبارات التي يكررها ابن خلدون في معرض حديثه عن اللغة أنها ملكة، و أن اللغات جميعها ملكات يتحدد موضعها في اللسان البشري، و مادام الأمر كذلك فإن الملكة قد يعتريها النقصان تارة و الكمال تارة أخرى، و لهذا فإن ابن خلدون يؤكد بأن أيّ لغة يمتلكها مجتمع ما لا يمكنها أن تحصل لدى أفرادها إلاّ بالممارسة التي يقصد بها عملية التعلم، فلا مناص أن تصبح هذه العملية مثل الصناعة، و ذلك من خلال قوله: "اعلم أن اللغات كلّها ملكات شبيهة بالصناعة "(ابن خلدون، 2002، ص 574)، و قوله أيضا: "والملكات اللسانية كلّها إنما تُكتسب بالصّناعة "(ابن خلدون، 2002، ص 588)، فوجه الشبه هنا هو إمكانية تعلمها، فكما يمكن للفرد أن يتعلم حرفة ما أو صناعة خلال مسار حياته، فكذلك الأمر حاصل في اللغة، إذ يمكن له أن يتعلم اللغة و يكتسبها من لدن بني جنسه، و هذا ما أكده في عبارة أخرى بقوله: "..إلا أن اللغات لما كانت ملكات.. كان تعلمها ممكنا شأن سائر الملكات "(ابن خلدون، 2002، ص 579)، "فعلى الرغم من تلك الدراسات الحديثة التي أظهرت بوضوح أن لغة البشر ربما كانت أعقد شيء في هذا الوجود حتى أن عشرات النظريات المختلفة قد برزت في القرن الماضي لمحاولة سبر أغوارها فإن كل طفل في أي مكان وفي أي زمان قادر على اكتساب اللغة التي يتحدث بها مجتمعه بيسر و سهولة و في فترة زمنية قياسية "(المعتوق، 1996، ص 19).

يؤكد ابن خلدون استمرارية العملية دونما توقف مادام قد وُجد الفرد في وسط المجتمع وتوفر لديه الاستعداد الفطري لذلك، حيث تظل حصيلة الطفل من ألفاظ اللغة بمدلولاتها و بمستوياتها وأنواعها المختلفة تنمو و تتسع كلما تقدم في العمر و توسع نطاق اتصاله واختلاطه بالآخرين و كثر سماعه لما يُنشئون من عبارات، و يحكون من أقوال، و ينقلون من أحاديث، و يتلفظون من صيغ و تراكيب، و هذا ما أثبته في العبارة الآتية: ".. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، و استعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة و صفة راسخة و يكون كأحدهم، هكذا تصيّرت الألسن و اللغات من جيل إلى جيل و تعلمها العجم و الأطفال "(ابن خلدون، 2002، ص 574).

لقد أفرد ابن خلدون لتعلم اللغة بصفة خاصة و تعلم العلوم بصفة عامة، مجموعة من الفصول تكلم فيها بإسهاب عن كيفيات التعلم مشيرا في ذلك إلى أن ثمة مجموعة من العوامل يمكنها أن تمكن الفرد دون غيره من الكائنات الأخرى من تحصيل مختلف العلوم و المهارات اللغوية، و هي تتمثل في عوامل فيزيولوجية واجتماعية و نفسية، ويمكن التفصيل في كل واحدة على حده فيما يلي:

أ/ **العوامل الفيزيولوجية:** لا شك أن أهم صفة ميز الله سبحانه وتعالى بها البشر هي العقل، حيث ثبت فيزيولوجيا أن العقل مكانه الدماغ، و قد أثبت ابن خلدون ذلك بأن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة واعتبره وجدان حركة للنفس و حدد وجود مكانه في البطن الأوسط للدماغ (ابن خلدون،2002،ص 553)، و أكد العلماء و على رأسهم بياجيه وجود هذه البنية العقلية القابلة للنمو و التطور لدى الطفل التي تمكّنه من إعادة تنظيم البنى المعرفية الموجودة لديه و القيام بتعديلها (الزغول،2003،ص 216).

واللغة من بين أهم العناصر التي تعمل على نشاط الفكر الذي يعمل على تحليل مختلف العمليات الذهنية المعقدة، كما أكد علماء التشريح على وجود منطقة دماغية محصورة في الجهة اليسرى تتحكم في السلوك اللغوي لدى الفرد عُرفت بمنطقة "**بروكا**"نسبة لمكتشفها، حيث أكد هذا العالم أن من بين شروط اكتساب اللغة و تعلمها هو سلامة هذا الجهاز على مدى الحياة، و أن إصابته في أي لحظة ما قد يحد من النشاط اللغوي و ذلك ببروز مشاكل نطقية تُعرف بـ **"الأفازيا "**، وهي نوع من احتباس الكلام و صعوبة إخراجه، و بالإضافة إلى هذه المنطقة الهامة فإن الإنسان يمتلك جهاز إصدار الأصوات المتمثلة أعضاؤه في الحنجرة و الأوتار الصوتية و اللسان و الشفتين و الخياشيم.

بحسب ابن خلدون فإنه بالرغم من سلامة هذه الأعضاء كلها، فإن الفرد لن يتمكن من اكتساب اللغة ما لم يتوفر لديه جهاز السمع، ذلك الذي يعمل على استقبال مختلف الأصوات من الخارج قبل مرورها إلى الذهن حيث أثبت ابن خلدون ذلك بقوله: ".. و السمع أبو الملكات اللسانية "(ابن خلدون، 2002، ص 566)، و يعني بقوله هذا أن المصدر الأساس لاكتساب اللغة عند الفرد هو السماع، و خير دليل على هذا القول هو الأبكم الذي لم يتكلم قط لا لشيء إلا لأنه لم يسمع صوتا أبدا بالرغم من سلامة باقي أعضاء النطق لديه، و أكد ابن خلدون أهمية السماع في الحصول على ملكة اللغة في مواقف أخرى بما يلي: ".. فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله.. كما يسمع الصبي استعمال المفردات.. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد.. إلى أن يصير ذلك ملكة و صفة راسخة و يكون كأحدهم "(ابن خلدون، 2002، ص 574).

الفرد - في نظر ابن خلدون - يكتسب اللغة و يتعلمها من خلال ما سمع من مفردات و تراكيب في سياقاتها المتعددة، كما أن سوء الملكة من سوء السمع أو اللحن في القول، و هذا ما أكده من خلال قوله: "..ثم فسدت الملكة، و سبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى.. و يسمع كيفيات العرب أيضا "(ابن خلدون، 2002، ص 574)، فالكيفيات الأخرى يقصد بها التأديات التي كانت تصدر من غير العرب و هم أولئك الذين دخلوا الإسلام عبر الفتوحات، حيث اختلطت لغة العرب بلغة العجم حينما صاروا مجتمعا واحدا، فصار الصغار يسمعون هجينا من اللغات مما جعل اللغة العربية الفصحى تفقد سليقتها الأمر الذي دفع بابن خلدون إلى أن يؤكد فساد الملكة مرجعا سبب ذلك إلى مصدر التلقي ألا و هو السماع، فالملكة لا تحصل بالإشارة أو بالكتابة و بما شابههما بقدر ما يعود فضل حصولها إلى سماع الصوت مباشرةً، لأن الصوت كما يعرّفه الجاحظ "هو آلة اللفظ، و الجوهر الذي يقوم به التقطيع و به يوجد التأليف، و لن تكون

حركات اللسان لفظا و لا كلاما موزونا و لا منثورا إلا بظهور الصوت، و لا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف "(الجاحظ، 1960، ص 79)، فسماع الصوت مباشرة يعمل على رسوخه في الذهن، و هذا ما أثبته ابن خلدون بهذا القول: "إلا أن حصول الملكات عن المباشرة و التلقين أشد استحكاما و أقوى رسوخا "(ابن خلدون، 2002، ص559).

كما أشار ابن خلدون إلى عملية عقلية مهمة تسهم على نحو فعلي في اكتساب الملكة اللغوية هي الفهم، و ذلك من خلال قوله: "..لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه "(ابن خلدون، 2002، ص 579)، حيث كان يقصد في ذلك فهم الأدب، و هو ما جادت قريحة العرب من فني المنظوم و المنثور بلغة تفيض بلاغة، و الفهم عملية ذهنية تتم بواسطة الإدراك والتذكر و يُعدّ في عرف علماء النفس عاملا أساسيا في عملية تعلم اللغة شريطة توفر التجانس في النظام الصوتي.

إن تعلم اللغة . في نظر ابن خلدون . يعتمد على عوامل فيزيولوجية بدءا بالسمع، مرورا بالفهم والإدراك و انتهاءً بالنطق و هذا ما أشار إليه منذ قرون خلت من الزمن، أي قبل أن تتأسس في هذا المجال نظريات و تبرز علوم و تخصصات على غرار الصوتيات و الفنولوجيا و علم أمراض الكلام و نظريات الإدراك، حيث أثبتت هذه النظريات على اختلاف توجهاتها بأن "النمو العقلي للإنسان منوط بنموه اللغوي، وأنه كلما تطورت و اتسعت لغة هذا الإنسان ارتقت قدراته العقلية فنما ذكاؤه و قوي تفكيره "(عاقل، 1953، ص 132).

الثراء اللغوي يدل على خصوبة في التفكير أو على ما قام به الفكر من حركة و فاعلية في مجال الاختزان و التصنيف و التنبه و التأثر و الاستجابة للمثيرات المختلفة كالتصور والتجريد و الاسترجاع و التحديد و الربط، فكلما زادت نسبة الذكاء العقلي للفرد ازدادت قدرته على فهم ما يسمعه من الجمل و العبارات، ومن ثمّ اتضحت له العلاقات أكثر بين المفردات اللغوية و مدلولاتها فازدادت حصيلته اللغوية.

ب/ **العوامل الاجتماعية:** من البديهي أن الفرد يبدأ بالاحتكاك و الاختلاط بغيره من أبناء جنسه منذ المراحل الأولى من حياته، وتدفعه إلى ذلك - بكل تأكيد . طبيعته، و حاجته إلى الدفاع عن نفسه، وتوفير أسباب حياته، و تلبية رغباته، و إشباع طائفة من غرائزه، فيبدأ بالاتصال الوثيق بأبويه وأفراد أسرته ثم بأفراد محيطه و مجتمعه بمختلف فئاتهم و مستوياتهم و طبقاتهم الاجتماعية والثقافية و على اختلاف أعمارهم و أجناسهم، الأمر الذي يدفعه نحو اكتساب لغته الأولى ممن يجاوره من بني جنسه، و قد أثبت ابن خلدون هذا الأمر في بعض فصول مقدمته فيقول: "فالمتكلم من العرب حينما كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم و كيفية تعبيرهم عن مقاصدهم.."(ابن خلدون، 2002، ص574)، حيث يتضح لنا جليا بأن اللغة ظاهرة اجتماعية أوجدها المجتمع و تفنن في أساليب استعمالها من أجل بسط أسباب التفاهم و التعايش، فاللغة . بكل تأكيد . مكانها المجتمع، إنه مقرها و مستودعها، و لا يمكنها أن توجد إلا في سياق اجتماعي، و يؤكد ابن جني اجتماعية اللغة في معرض حديثه عن انتقال لغة العربي الفصيح بما يلي: ".. بتجاورهم و تزاورهم يجرون مجرى الجماعة الواحدة في دار واحدة، فبعضهم

يلاحظ صاحبه و يراعي أمر لغته كما يراعي ذلك من مهم أمره "(ابن جني، ج 1، 2007، ص 16)، وبهذه الملاحظة و هذه المراعاة يكتسب الفرد الناشئ منهم عند اتصاله و اختلاطه بهم سليقته اللغوية و ينميها، كما يكتسب أيّ عادة أخرى في مجتمعه و يطورها، إنه يكتسب منهم مفردات لغته و يتعلم قواعد تركيب هذه المفردات و طرق تأليفها للتعبير عن المعاني و المقاصد و المواقف المختلفة، كما يتعلم كيفية استخدامها في سياقاتها و أنساقها المقبولة، ويتعارف على كل ما يتواطأ أفراد الجماعة اللغوية و يتعارفون عليه من اختصارات و أنماط تركيبها و في طرق نطقها، و هذا ما كان يقصده ابن خلدون حينما انبرى يقول: ".. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، و مراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، و هذا هو معنى البلاغة "(ابن خلدون، 2002، ص 574).

نفهم من هذا الكلام أن اللغة ضرورية لاستقرار الحياة الاجتماعية، لأنها أساس لوجود التواصل في هذه الحياة، وأساس لتوطيد سبل التعايش فيها، فهي وسيلة الفرد للتعبير عن حاجاته و رغباته وأحاسيسه و مواقفه، و هي أداته للتخاطب و التفاهم مع الآخرين و تبادل الأفكار و الآراء و المشاعر معهم، و طريقه إلى فهمهم و تحسس أذواقهم، و سبيله لمعرفة مذاهبهم و وسائل التأثير فيهم، و إيجاد العلاقات و بناء الروابط و تحقيق سبل التعاون و التكامل معهم، وبالتالي تصبح وسيلة لتوفير الحماية الاجتماعية و الرعاية وبسط الآمان و العيش في يسر وطمأنينة و هدوء بين أفراد المجتمع، كما تصبح عاملا مهما به تتحقق منافعه و مقاصده وتسّهل سبل تنشئته و تيسّر أمور عيشه في إطار مجموعة بشرية متلاحمة، فاللغة – كما يرى البعض – هي منزل الكائن البشري، ويؤكد ابن خلدون أن ملكة اللغة لا يمكنها أن تنمو و تتطور و تتسع لدى الفرد إلا إذا احتضنها المجتمع.

لقد استطاعت اللغة العربية مثلا أن تحفظ أخبار العرب و تاريخهم و علومهم و فنونهم و عاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم و ذلك بما استطاع أن يحمله أدبهم من فني المنظوم و المنثور، هذا الذي دعا ابن خلدون إلى فهمه و حفظه عسى أن تحصل به ملكتهم، و ذلك حينما يؤكد بقوله: "..أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم و خالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم "(ابن خلدون، 2002، ص581). "فمن الثابت إذاً أن اكتساب اللغة علامة على أن الطفل بدأ يتبوأ مكانة في مجتمعه، والشرط الأساسي لحصوله على تلك اللغة هو التعاون الذي ينشأ بين الطفل و الراشد والتماس المتواصل بينهما، بحيث يأخذ الراشد بيد الطفل لكي يفتح عينيه على عالم الموجودات فيتعامل معها و يستخدمها في ما يعود عليه بالنفع و الفائدة "(حنفي، د.ت، ص 142).

اللغة تساعد الفرد على تعديل سلوكه ليتلاءم مع المجتمع، لأنها تزوده بالعبارات المناسبة لكل مقام، و عندما يتعلم الفرد تلك العبارات و يرددها في الظروف المناسبة فإنه يحاول أن يُخضع سلوكه كفرد لما تقتضيه سلطة المجتمع، و بالتالي يمكن القول أن اللغة لا تعدو أن تكون راسبا اجتماعيا لممارسة الكلام، و من ثمة فإنه لا وجود إطلاقا لأي حقيقة لغوية واقعية خارج بنية المجتمع.

ج/ العوامل النفسية: أثبتت الأبحاث في العلوم الإنسانية على مر الزمن ضرورة الاستعانة بعلم النفس في مختلف الممارسات التعليمية، حتى أصبح شريكا في عملية تحصيل المعارف و الفنون ومختلف المهارات، لأن المستهدف من هذه العمليات هو الفرد الذي يعتبره علم النفس شخصية تتحكم فيها الكثير من النزعات والميول و الرغبات و الاضطرابات، و ما إلى ذلك من عدم الاستقرار والثبوت على حال واحد، مما ألزم العلماء النظر في هذه الشخصية من زاوية عريضة، و ذلك للقيام بدراسات معمقة للكشف عن كل مكوناتها المادية و المعنوية، لاسيما عندما تواجهها صعوبات في عدم التكيف مع الواقع المعيش، وهذا ما دفع ابن خلدون نحو تخصيص فصلين كاملين لهما علاقة بما ذكرناه، حيث عنون أحدهما بـ: **"في وجه الصواب في تعليم العلوم و طريق إفادته "**، أما الآخر فعنونه بـ: **"في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم "**، غير أن ابن خلدون لم يركز من خلالهما على ملكة اللغة فقط، و إنما تحدث عن تعليم العلوم بوجه عام، و قد اعتبر العلوم كلها بمثابة ملكات تُكتسب و يتحصل عليها الفرد و تصبح صفة راسخة في ذهنه، ومن هذه الوجهة حدّد ابن خلدون مجموعة شروط لهذا التحصيل، فكانت أولها قضية **"التدرج "**(Progression)، الذي يعني الانتقال من السهل إلى الصعب و من البسيط نحو المركب، حيث يعتبر هذا المبدأ من أساسيات العملية التعليمية، و يعظّم ابن خلدون الإفادة من وراء استغلال هذا المبدأ من خلال قوله: "اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدرج شيئا فشيئا و قليلا قليلا "(ابن خلدون، 2002، ص 551).

يفسر ابن خلدون عملية التدرج هذه بمنح المتعلم المسائل البسيطة من العلم أو الفن في البداية، ثم يُقدم له الشرح و التفصيل على سبيل الإجمال مراعيا في ذلك قوة عقله و استعداده لما يرد عليه، ثم تأتي عملية الشرح و البيان، و تليها عملية التوضيح و إزالة الإبهام إلى أن يخلص إلى نهاية العلم أو الفن، و ذلك بأن يستوفيه المتعلم و تحصل من وراءه الملكة المراد اكتسابها ، و هذا وجه الإفادة التي يقصدها بقوله: ".. هذا وجه التعليم المفيد "(ابن خلدون، 2002، ص 552)؛ أي: أن الإفادة من حصول الملكات تتم بواسطة استعمال مبدأ التدرج دون سواه، و بالتالي فهو يدخل ضمن الطرائق النشطة في العملية التعليمية التي دعا إليها المربون، إذ أنه من المستحيل أن يأخذ المتعلم المسائل التعلّمية دفعة واحدة لأنه أول الأمر يكون عاجزا عن الفهم بالجملة، فتصعب عليه عملية تخزين الأفكار و تثبيتها في ذهنه لاسيما إذا اتسمت تلك العلوم و المعارف بنوع من الغموض والتعقيد، أو كما سماها ابن خلدون "المسائل المقفلة"، فيصبح من الضروري على المعلم القيام بعملية التبسيط والتحليل والتقريب واستعمال الأمثال الحسية وفق مبدأ التدرج، أي الانتقال من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه وهو – كما رأينا – عملية تسلسلية و انتقالية يُراعى فيها بالدرجة الأولى إدراك المتعلم و قوة عقله لقبول ما يرد عليه، و باستعمال هذا المبدأ و توظيفه فإن المتعلم يخلص من الفن لا محالة وقد استولى على ملكته وجادت قريحته بها.

وبالمقابل فإن ابن خلدون يحذّر من تركيم العلوم على المتعلم و إعطائه إياها دفعة واحدة، لأن النتائج ستكون وخيمة، وهذا ما أكده بقوله: "و لا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلّمه على فهم كتابه الذي

أكبّ على التعليم منه بحسب طاقته.. ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيها من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه و يستولي منه على ملكة ينفذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، و حصل له نشاط في طلب المزيد و النهوض إلى ما فوقَ، حتى يستولي على غايات العلم، و إذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم و أدركه الكلال و انطمس فكره وبئس من التحصيل و هجر العلم و التعليم "(ابن خلدون، 2002 ص 552).

مبدأ التدرج - في نظر ابن خلدون - يُعد من بين الطرائق المهمة في العملية التعليمية لأنه يهتم بحسن اختيار المعارف من جهة، و كيفية عرضها و تقديمها للمتعلم من جهة أخرى، مركزا في الوقت نفسه على مقدار الذكاء لدى المتعلم في حل المسائل، كما أن الحصول على هذه المعارف و تثبيتها في الذهن مرهون بجودة الطرائق، و بالتالي فإنه من الواجب على المعلم مراعاة هذا الجانب و اعتباره أمرا ضروريا، و لهذا نجد ابن خلدون يذكره في العبارة الآتية: "و قد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العصر الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته، و يحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، و يطالبونه بإحضار ذهنه في حلّها، و يحسبون ذلك مرانا على التعليم و صوابا فيه، و يكلفونه رعي ذلك و تحصيله، فيخلطون عليه بما يُلقون له من غرائب الفنون في مبادئها "(ابن خلدون، 2002، ص 552).

يشترط ابن خلدون لمبدأ التدرج عاملا مهما هو الاستعداد، حيث نجده دوما يذكره ملازما له و ذلك في سياقات متعددة منها ما يلي: ".. فإن قبول العلم و الاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا /..ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا /.. و يراعى في ذلك قوة عقله و استعداده لقبول ما يرد عليه "(ابن خلدون، 2002، ص 551)، و الاستعداد في عرف علماء النفس حالة من التهيؤ أو النزعة إلى تنفيذ استجابة متعلمة ما حيال موقف مثيري معين، أو النزعة إلى تعلم استجابة جديدة حيث يفترض "ثورندايك "أن الاستعداد يؤدي دورا في حدوث عملية التعلم و تنفيذ الاستجابات، فهو يرى أن مثل هذا الاستعداد يُسهم على نحو فعلي في تحديد الظروف التي يكون فيها لدى الفرد ميل للرضا والارتياح، "فوجود حالة من التهيؤ لدى الكائن الحي يعني أن لديه استعدادا قويا لتنفيذ الاستجابة المطلوبة، في حين أن عدم توفر حالة التهيؤ يؤدي إلى عدم تنفيذ مثل هذه الاستجابة "(الزغول، 2003، ص 71)، فالاستعداد النفسي للمتعلم يسهم في حدوث عملية التعلم من حيث أنّه يقوي لديه الرغبة في التعلم و يزداد شوقه إليه كلما توفرت لديه أساليب التعلم الناجحة.

يضيف ابن خلدون إلى مبدإ التدرج في التعليم عنصرا آخر يكتسي أهمية بالغة في العملية التعليمية و يُضفي عليها النجاح التام إذا أُحسن استغلاله ألا و هو التكرار، حيث يعتبره شرطا أساسيا في الحصول على الملكات مثبتا ذلك قوله بما يلي: ".. و الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال "(ابن خلدون، 2002، ص 574)، و يبرهن على ذلك بقوله: ".. لأن الفعل يقع أولا و تعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، و معنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة "(ابن خلدون، 2002، ص 574).

يقول في سياق آخر نظير هذا المعنى: ".. لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره "(ابن خلدون، 2002، ص 553)، فالتكرار هو من الدعائم الصلدة التي تقوم عليها العملية التعليمية "من حيث هو استمرار لفعل العلاقة القائمة بين المثير و الاستجابة و هي العلاقة التي تتحول إلى عادة عند المتعلم، مما يجعل الذاكرة قادرة على استيعاب المفاهيم في سياقات متباينة "(حساني، 2014، ص 55)، ويرى ابن خلدون في تعليم ملكة اللغة بالذات خير دليل على أهمية التكرار ومدى نجاحه فيها مؤكدا ذلك بقوله: "و هذه الملكة.. إنما تحصل بممارسة كلام العرب و تكرره على السمع و التفطن لخواص تركيبه "(ابن خلدون، 2002، ص 581).

يضيف أيضا: ".. و إنما تحصل هذه الملكة بالممارسة و الاعتياد و التكرر لكلام العرب "(ابن خلدون، 2002، ص 582)، حيث يتضح لنا من خلال هذا الكلام أن أصفى صورة لدور التكرار في عملية التعلم تكون في تعليم اللغات لأن اكتساب العادة اللسانية قائم أساسا على التكرار، تكرار التلفظ بمتوالية صوتية معينة، أو التلفظ ببنية تركيبية محددة إلى غير ذلك من مكونات النظام اللساني لدى المتعلم، "و هذه العادات اللسانية تُكتسب عن طريق الممارسة الفعلية للحدث الكلامي في مواقف و سياقات مختلفة، لأن أنظمة العلامات اللسانية هي صور مختلفة لعادات تأخذ دلالاتها في رحاب ثقافات مختلفة "(حساني، 2014، ص 55)، و معنى الثقافات المختلفة في هذا السياق أكده ابن خلدون بعبارة ".. و في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم "(ابن خلدون، 2002، ص 565)، مشيرا في ذلك إلى تعدد الثقافات و اللغات بحسب المجتمعات.

ويظهر استعمال مبدأي التدرج والتكرار بكثير من الدقة و الوضوح في هذه العبارة الآتية: ".. يسمع الصبي المفردات في معانيها فيلقنها أولا، يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة و من كل متكلم و استعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة و صفة راسخة "(ابن خلدون، 2002، ص 574)، حيث يُظهر ابن خلدون في هذه العبارة مراحل اكتساب اللغة عند الفرد بكثير من الدقة و التسلسل و التنظيم المنطقي بطريقة الانتقال من السهل إلى الصعب، حيث يبدأ بسماع المفردات و تعلمها في مرحة أولى، و هي العناصر اللغوية السهلة سواء على المستوى الصوتي أو الدلالي، و ذلك بدعم من سياق الموقف حيث تؤدي القرائن غير اللغوية المحيطة بها أثناء السماع دورا مهما في عملية الفهم و التخزين، ثم تأتي العملية الثانية التي تمثل المستوى التركيبي وهي بذلك أكثر صعوبة نوعا ما من الأولى، و ذلك حينما يشرع المتعلم في تثبيت الجمل و العبارات في ذهنه بعد سماعه إياها، و هذا بعد أن يكون قد حصُل على قاموس من الألفاظ اللغوية مما يسهل عليه فهم معانيها داخل السياق اللغوي.

ومما يدعم هاتين العمليتين في نظر ابن خلدون هو استمرارية عملية السماع و تجددها بين الحين والآخر، بالإضافة إلى تكرار الاستعمال اللغوي من المتعلم نفسه حيث يعني بذلك الممارسة لأن الممارسة تعني "تكرار النشاط مع توجيه معزز، وهي تشمل جميع أساليب النشاط سواء كانت تتعلق باكتساب المهارات أو المعلومات أو طريقة التفكير، و لا يمكن للتعلم أن يحدث دون ممارسة، حيث تعتبر الوسيلة الوحيدة التي يمكن بواسطتها الحكم على ما حدث من تغيير في أساليب الفرد "(زيدان،

1983، ص37)، و مع استعمال التدرج و التكرار و حسن توظيفهما تتحول النماذج اللغوية المتداولة إلى ملكة و صفة راسخة بحسب ابن خلدون، و لعل هذا النموذج من تعلم المهارة اللغوية يشكل منهجية عمل رسمية في المنظومة التربوية لاسيما في الطور الأول من المرحلة الابتدائية.

يتطرق ابن خلدون في الفصل الأربعين إلى قضية لا تقل أهمية عن سابقتها، تتمثل في أسلوب العقاب الذي يُستعمل في تعليم النشء، و قد اصطلح عليه بلفظ **"الشّدة "** و معنى ذلك استعمال القسوة و العنف و التوعد بالعقاب و الضرب و الشتم و ما إلى ذلك، حيث يرى أن هذا الأسلوب لا يحقق نتيجة إيجابية في الحصول على الملكة فيقول: ".. أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة "(ابن خلدون، 2002، ص 558).

يؤكد ابن خلدون بأن استعمال هذا السلوك مع المتعلم يؤدي إلى نتائج وخيمة من حيث أنه يعكر مزاج النفس و يجعلها ضيقة و يذهب عنها نشاطها و حيويتها ويدفع المتعلم نحو الكسل والتماطل،الأمر الذي يدفعه في الأخير نحو الكذب و الخبث و الخديعة دفاعا عن نفسه من عنف معلمه و خوفا منه، وقد يستمر في ذلك نحو اكتساب العادات السيئة و الأخلاق الرذيلة و كل ذلك جاء بسبب أسلوب العقاب الذي يرى علماء النفس أنه "إجراء مؤلم أو مثير غير مرغوب فيه يتبع سلوكا ما بحيث يعمل على إضعاف احتمالية تكرار مثل هذا السلوك و هو نوع من المثيرات المؤلمة ذات التأثير النفسي تعمل على منع أو كف حدوث سلوك ما "(الزغول، 2003، ص85)، و منه فإن ابن خلدون ينصح بقوله: "فينبغي للمعلم في متعلّمه و الوالد في ولده أن لا يستبدا عليهما في التأديب..حرصا على صون النفوس من مذلة التأديب "(ابن خلدون، 2002، ص589).

إن استعمال العنف بمختلف أنواعه و أشكاله (المادي و اللفظي) مع الأطفال في مختلف الممارسات التعليمية أمر يضعف النفس و يقتل فيها النشاط و الذكاء و حب التطلع و روح المنافسة و يفقد فيها الاستعداد و القابلية و الانفتاح على مزاولة العلوم و تبعد عنها محبة التعلم و الاكتساب حتى ينتهي به الأمر إلى الكسل عن اكتساب الفضائل و الخلق الجميل، فتنقبض النفس عن غايتها ومدى إنسانيتها و تنحرف عن مسلكها النبيل، و خلافا لهذا الأسلوب غير المجدي نفعا فإن النفس البشرية تحتاج في اكتسابها و حصولها على الملكات للملاينة و الملاطفة وتوفر عناصر التشويق و التحبيب والتهذيب في المعاملة، الأمر الذي يبعث في النفس الارتياح و الهدوء و الطمأنينة و يزيد فيها الثقة والثبات، و يأخذها إلى البراعة في تحصيل المعارف و تطوير المهارات والقدرات، و ترسيخ الملكات وتشجيعها على تجاوز العقبات وتذليل الصعوبات و تجديد الطاقات الروحية و شحذها للظفر بالعلوم، و يمنحها الاهتمام و التركيز أكثر من أي وقت مضى، و يُذهب عنها التذبذب و الحيرة، كما يمنحها الشجاعة على حب الاطلاع و المعرفة، ويصبح هذا الأسلوب الذي يعمل على انبساط النفس وطلاقتها من أهم الاستراتيجيات و فنون التعليم والتعلم.

خلاصة:

أثبت ابن خلدون في مقدمته في معرض حديثه عن اللغة بأنها قدرة ذهنية تتكون من أصوات ومفردات و قواعد تنتظمها جميعا، تتولد و تنمو في ذهن الفرد ناطق اللغة و مستعملها فتمكنه من إنتاج عبارات لغته، كما تمكّنه من فهم مضامين ما ينتجه أفراد مجموعته من هذه العبارات، حيث تتداخل في تكوين هذه القدرة عوامل فيزيولوجية تتمثل في تركيب الأذن و الجهاز العصبي والمخ والجهاز الصوتي لدى الإنسان، و عوامل نفسية تتمثل في الاستعداد الفطري الذي يدفعه نحو اكتسابها و شعوره بالميل إلى بني جنسه من الأفراد و حسن الممارسة لهذه العادة الصوتية، بالإضافة إلى عوامل اجتماعية حضارية تؤكد رغبته في التعايش و تبادل المنافع و المصالح بينه و بين أفراد المجموعة البشرية، و تظل لغة الفرد في تنام و تطور مستمرين مادام اتصاله بأفراد مجتمعه مستمرا و متطورا، كما أن عملية الانفتاح على المجتمع وإنشاء العلاقات و توثيقها مع أفراده بمختلف طبقاتهم و أعمارهم و أجناسهم تصبح ذات أثر كبير في تنمية المهارات اللغوية، و إغناء حصيلة الفرد بمفردات اللغة و تراكيبها و أساليبها المتنوعة.

عند ابن خلدون، فإن تعلم العلوم بشكل عام، و تعلم اللغة بشكل خاص مرهون بتوفر هذه العوامل الثلاثة بكل ما تحمله من تفاصيل دقيقة، و نشير إلى أن هذا الأمر قد حصل منذ قرون خلت و لكن ابن خلدون و بفضل عبقريته قد تفطن إلى هذه المسائل التي هي اليوم نظريات أثمرتها التجارب والمحاولات المستمرة على امتداد عقود من الزمان.

إن هذه الملامح الفكرية في تعليم العلوم وتعلمها، التي ربما تتميز بالطابع الاجتماعي البسيط هي بمثابة إشارات واضحة تؤسس للعملية التعليمية في عصرنا اليوم، حيث أصبح يُعتمد عليها بين الحين والآخر في تعليمية اللغة والعلوم بالرغم من التطور التكنولوجي الحاصل في مختلف مناحي الحياة، لأنها تعطي تفاسير هامة للعديد من الظواهر التي غالبا ما تتميز بالتعقيد، ونؤكد بأن هذه الأفكار هي عصارة تجربة عاشها ابن خلدون استطاع أن يفهم من خلالها طبائع البشر، فانبرى يعالج القضايا الهامة التي تتعلق بإثبات وجود الإنسان في هذه الحياة.

قائمة المصادر و المراجع:

أ- العربية:

- ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين. (2002). المقدمة. ط 3. دار الفكر للطباعة. بيروت. لبنان.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (2007). الخصائص. ط 3. دار الحديث. القاهرة. مصر.

- خرما، نايف و حجاج،علي.(1988). (اللغات الأجنبية، تعليمها و تعلمها). سلسة عالم المعرفة، العدد 132. الكويت.

- المعتوق، أحمد محمد.(1996). (الحصيلة اللغوية - أهميتها - مصادرها وسائل تنميتها). سلسلة عالم المعرفة ، العدد 212

- زيدان، محمد مصطفى.(1983). نظريات التعلم و تطبيقاتها التربوية.ط1. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.

- حساني، أحمد.(2014). دراسات في اللسانيات التطبيقية - حقل تعليمية اللغات.ط 2. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.

- الزغول، عماد. (2003). نظريات التعلم. ط 1. دار الشروق للنشر و التوزيع. عمان. الأردن.

- حنفي، بن عيسى. (د.ت). محاضرات في علم النفس اللغوي. ط1 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1959) البيان و التبيين. ط 5. مكتبة الخانجي. القاهرة. مصر.

- عشير، عبد السلام. (2007). الكفايات التواصلية – اللغة و تقنيات التعبير و التواصل. ط 1. الدار العالمية للكتاب. الرباط. المغرب.

- عاقل، فاخر. (1953). أصول علم النفس و تطبيقاته. ط 1. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان.